جفاف المشاعر

منذ فترة ليست بالقليلة يعم الصمت ، ويرتسم الضجر على وجهيهما كلما التقيا، كأنما جمعهما المكان على غير هوى منهما .. كثيراً ما يكون شارد اللب ، قلق النفس ، حائر البال، بين لحظة وأختها يرنو إليها بطرف خفي فيلمح انقباضاً في أسارير وجهها العبوس فيزداد امتعاضاً وتجهّماً..!!

وهي مطرقة صامتة تسبح بأفكارها وخواطرها في بحار بلا شطآن من الهموم والشكوك التي لا تفتأ تساورها صباح مساء، حتى أحالت ليلها نهاراً ، فلا تغمض لها عين، ولا يرقأ لها دمع، وأحالت نهارها ليلاً سرمداً كئيباً موحشاً خبا في جوفه ضوء الأمل، وغابت عن سمائه شمس الرجاء.

برودٌ وجفافٌ أحدقا بهما بعدما اعتُقِل في حلقيهما لساناهما ، وتبلدت من فرط صمتهما مشاعرهما، فأصبحا كتمثالين حجريين يخلوان من كل حرارة إلا من حرارة النجوى ، وحديث النفس إلى النفس ..!

مجتثَّةٌ في بستانهما الذابل أشجارُ العواطف .. مهدّمةٌ أمام أعينهما جسورُ التواصل.. مقطعةٌ بين شفاههما خيوطُ الحوار، فأمسى المكان جامداً موحشاً كالطلل أو الكهف الخرب..!

شرع يهيم في عالم من الأفكار والخواطر.. يستدعي الذكريات، ويسأل نفسه في ألم ممضّ، وكرب لا تنقشع غمامته:

ـ من هذه المرأة الماثلة أمامي ؟ أهي بحق زوجتي ؟! أيمكن أن أكون قد أحببتها يوما؟! كيف اخترتها ؟! أكنت مصاباً بالخبل حينئذٍ ؟! أم هي المراهقة الملعونة التي تصوّر لنا القبح جمالاً؟! ألا

ما أبرد عاطفتها ، وما أثقل ظلها ..! ألا ما أشبهها بالرجال..! بل ما أشبه الرجال بها..!!

هاهي قابعة أمامي صامتة كالحجر.. باردة كالثلج .. أ ترى فيم تفكر.. ؟! أتكون قد علمت بما عزمت عليه من أمر الزواج ؟! وما الغريب في الأمر .. !! أليس من حقي أن أتزوج ما طاب لي من النساء مثنى وثلاث ورباع..؟!

إنني أحوج الناس إلى الزوجة الثانية .. أريد أن أشعر برجولتي .. أريد امرأة جميلة رشيقة تملأ دنياي بالحب والحنان والنشوة والمرح.. أريد أن أمشي بين الناس مرفوع الرأس مختالاً كالطاووس، وقد استقرت على ذراعي ذراع أنثى كالقمر، تتهادى إلى جواري كظبية وديعة تصرف أبصار الناس إلينا فأرنو إليهم بنظرات ازدراء كأني ملكت الدنيا بما فيها.

والزوجة مازالت مطرقة ترجع بذاكرتها إلى ما قبل الزواج .. تتراءى لها صورة أبيها الحنون الذي كان يحبها أكثر من نفسه ، ويخصها بمزيد من التدليل عن بقية إخوتها ، أكان يرى من سجف الغيب ذلك العذاب الذي ينتظرها ؟! أكان يسمع تلك الآهة الحرّى المتردد صداها بين جوانحها قبل أن تولد بعشرات السنين ؟!

من لها في وحدتها الكئيبة بعد أن هجرها زوجها بروحه وجسده؟!

لو كان ميتاً لهانت مصيبتها؛ فكم من زوجة مات عنها زوجها وهي لا تزال في ريعان شبابها، فتؤثر أولادها على نفسها ، وتعكف في صمت ورضا على تربية أولادها ، لكن الخطب يكون أفدح إذا جمعهما مكان ثم لا يكون معها بروحه ولا بجسده .

حنانيك يا إلهي .. رفقاً بأمتك الضعيفة .. رفقاً بأمتك التي طالما صبرت على فقر زوجها، وتجرعت في كنفه غصص الحرمان، إنها لا تزال تحبه، لا تزال قادرة على التضحية.. ولكن من أجل من؟!

من أجل زوج لا يطيق رؤيتها ؟! من أجل رجلٍ يتجاهلها وكأنها نسيا منسيا ؟!

ما ذنبها في كونها تشبه أباها؟! .. ألم يكن أبوها وسيماً ؟!

ما ذنبها في اكتناز لحمها، وازدياد وزنها حتى تلاشت تضاريس جسدها فأضحت كالكرة المنتفخة ؟! ما ذنبها في ثرثرة ورثتها عن أمها وصوت جهوري ورثته عن أبيها ؟! ما ذنبها في جرأتها التي درجت عليها حتى لقد غدت تتطاول على زوجها وأهل زوجها باللعن والسباب لأنها اعتادت منذ صغرها ألا تسكت لأحد يسبها أو يهين كرامتها ..؟!

لعل هذه الصفات المجتمعة فيها هي ما جعلت زوجها كارهاً لها، نافراً منها ، وينتظر من الله لحظة الخلاص .. لكنه مع هذا لا يملك القدرة على تطليقها؛ فبينهما نبتت بذور جديدة تحتاج إلى الرعاية والحنان، ولعله يخشى الضياع على أولاده إذا حدث الفراق ، كما أنه موقّع على إيصال أمانة؛ فهو لم يكن يملك مهرها حين تقدم لخطبتها، ولا يملك المسكن الذي يعيشان فيه، لقد ضحّى أبوها من أجل سعادة ابنته ، تلك المحببة إلى قلبه ..!

ولولا خوف الزوج من العاقبة الوخيمة المترتبة على هذا الإيصال الذي وقّع عليه لما بقيت زوجته على ذمته كل هذه المدة التي تجاوزت عقداً من الزمان؛ إذ إنه لا يستطيع بأي حال من الأحوال أن يوفيها ما عليه من حقوق، أو يسدد تلك الديون التي تطوق رقبته فتجعله أمامها ذليلاً.. ولفضلها أسيراً، خاصة وأنه يعمل موظفاً صغيراً في إحدى الوظائف الحكومية.

وجد في عمله بعد الظهر ما يشغله عن زوجته، ويجعله يتحرر من قيدها بقية من النهار وطرفا من الليل.. أصبح في عمله منهمكا حتى لم يعد يعلم شيئاً عن أولاده، ولا يحاول أن يسألها عن أحوالهم لأنهم يذكّرونه دائمًا بخطيئته التي يحاول نسيانها .. إنه

يخرج من البيت قبل أن يستيقظوا من نومهم، ويعود إليه بعدما يغطوا في نوم عميق.

في عالمه الجديد الذي أخذ منه جُلّ وقته بهرته المدينة بأضوائها البراقة، وضجيجها الصاخب، وحوّله الثراء الذي يراه مجسداً أمامه في البيوت الفخمة، والأثاث الفاخر، والسيارات الفارهة إلى شخص متمرد على حياة الضنك التي يعيشها، ثائر على هدوء القرية البائسة الناعسة الزاحفة نحو المغيب .

لاحت لعينيه الفتيات الصغيرات في أزيائهن العصرية كظباء تتهادى لاهية عابثة.. هفا إليهن قلبه الملتاع، واشتاقت للريّ من جمالهن النديّ روحه الظامئة، كان يحتال لجذب أنظارهن إليه ، فإذا ما وقعت إحداهن في شباكه دعاها إلى تناول الغداء معه في أحد المطاعم الفاخرة .. ينفق عليها في وجبة واحدة ما ينفقه على أسرته في شهر.

ما كان ليطمع في شيء أكثر من خروجها معه، وسيرها إلى جواره، وقضاء وقت ممتع وإن كان قصيراً .. كانت لذته في محادثتها عن قرب، ورؤية علامات المرح والانطلاق مطبوعة على وجهها الضحوك، ومتلألئة في عينيها الباسمتين، وما أسعده حينما يلامس يديها الناعمتين كالحرير، لكنه سرعان ما يصيبه الملل، ويعتريه الفتور فيبحث عن فتاة أخرى ينفق عليها مثل ما أنفقه على فتاة الأمس..!

كثيراً ما نصحه أحد أصدقائه بأن يتخلى عن هذا السلوك الشائن والعادة الذميمة ؛ إذ إن أولاده وزوجه أحق من غيرهم بهذا المال المهدر في سبيل الهوى والشيطان والنفس الأمارة بالسوء، لكنه لم يأبه لنصيحة صديقه وظل سادراً في غيّه لا يلوي على شيء .

امتدت يده للاقتراض ممن يعمل عنده أكثر من مرة، فلما رأى صاحب العمل بذخه وإسرافه وعدم اكتراثه بما وصل إليه حاله رفض إقراضه وأصبح يطالبه بما عليه من ديون..!!

تعرف على أرملة حسناء صغيرة السن ، عرض عليها الزواج.. أبدت موافقتها وأخبرته بأنها تمر بضائقة مادية وتحتاج إلى معونته .. تحركت في صدره مظاهر النخوة والشهامة، وحاول أن يظهر لها بأنه رجلها الأوحد .. جهز أوراقاً وحوّل راتبه على البنك وسحب قرضًا على راتبه ليقدمه هدية لهذه الأرملة الجميلة .. أخذت المال ثم اعتذرت إليه بأنها لا تقبل أن تكون زوجة ثانية..

طارت العصفورة الرشيقة من يده مخلفة وراءها ذيلاً ثقيلاً من الديون، اختار كرهاً أن يحمله على عاتقه حتى ناء من ثقل حمله، وضاقت عليه الأرض بما رحبت .

فكر معه بعض شياطين الإنس من رفاق السوء الذين تعرف عليهم في الآونة الأخيرة فقال أحدهم ذات مرة:

- وجدتها ..!

فرد وقد بدت الدهشة على وجهه :

- أي شيء تقصد؟!

- أقصد الفكرة التي تمكننا من الحصول على المال بسهولة .

- وما هذه الفكرة التي واتتك؟

- نستأجر شقة مفروشة لمدة قصيرة نفتح فيها مكتباً للسياحة والعمالة ونعلن في الجرائد عن حاجتنا إلى أيدٍ عاملة للسفر إلى الخارج أو للتوظيف داخل الدولة ، نطلب من كل فرد مبلغا من المال يتناسب مع نوع الخدمة المفترض أن تقدم له ، فإذا ما تجمع لنا قدر من المال يرضينا نلوذ حينئذٍ بالفرار.

- وهل تظن الناس من السذاجة بمكان يجعلهم يصدقوننا ويستأمنوننا على أموالهم ؟

ـ اعلم يا أخي أن الناس مهما ارتقت عقولهم، ومهما تفتقت أذهانهم من السهل أن تسيطر عليهم وتسلب منهم أموالهم ، لاسيما في هذا الزمان الذي أصبحوا فيه كالغرقى يتطلعون إلى طوق نجاة ولو كان خادعاً .

برقت في أذهانهم الفكرة ، وشحذت الأحلام المستعرة هممهم، فطفقوا يجسدون هذا الوهم المسيطر، ويحولون أحلامهم السانحة إلى حقيقة واقعة .

في غضون بضعة أشهر جمع الرفاق أموالا طائلة من جراء بيعهم الأوهام الكاذبة للكسالى السذج الذين يعيشون على آمال زائفة؛ كل واحد من هؤلاء يحلم بوظيفة أنيقة يجلس خلالها إلى مكتب فخم، ويسند ظهره في عنجهية وخيلاء إلى مقعد وثير، تداعب نسمات التكييف محياه، فيزور الكرى عينيه الناعستين فلا يفتحهما إلا عندما يحين موعد الانصراف.

هكذا يحلمون .. لا يفكر أحدهم في أن يضرب في الأرض ابتغاء رزق الله ، تعودوا أن يكونوا عيالاً على أهليهم حتى سن الثلاثين ، فكيف لا يكونوا عيالاً على الحكومة بقية عمرهم؟!

بيد أن في هؤلاء المضحوك عليهم أناساً جديرين بالشفقة، خليقين بما يسعون إليه، بعضهم يبحث عن فرصة حقيقية للسفر كي يحقق طموحه وأهدافه، وبعضهم يبحث عن وظيفة؛ لأن صحته لا تساعده على الأعمال الحرة والشقاء اللانهائي..!

في ظروف غامضة اختفى رفاق السوء عن الزوج البائس وعن أعين الرقباء، وبقي الزوج ضحية خديعتهم الماكرة ؛ فالضحايا لا يعرفون أحداً من هؤلاء الرفاق، وإنما يعرفون هذا الزوج الذي كان يستدرجهم إلى المكتب، فيدفعون أموالهم بدافع الثقة فيه والاطمئنان إليه.

طالبوه بكل أموالهم التي دفعوها لهذا المكتب، ولأنهم لا يملكون أوراقاً رسمية تدينه ورفاقه، اضطر بعضهم إلى اختطافه، وفرض فدية على أهله، بعد أن أوسعوه ضرباً ..! باعت زوجته كل حليها وأخذت حقها في ميراث أبيها، واقترض شقيقه من بعض الناس كي ينقذه من أيدي مختطفيه الذين هددوا بقتله إذا لم تصلهم أموالهم ..!

عاد إلى بيته منكسراً بعدما ذاق ألواناً من العذاب، وبعدما طرده صاحب العمل بسبب سمعته التي أوشكت أن يحيق أذاها بصاحب العمل .. لم يجد حوله من الناس إلا زوجته المحبة له.. نظر إليها فوجد إنسانة مختلفة تماماً عن زوجته التي يعرفها، لقد تبدل العبوس الملازم لها إلى ابتسامات حانية، والصوت الجهوري غدا أرخم من هديل الحمائم وشدو البلابل ، والجسد المتكور أصبح ممشوقا كغصن البان ، والقلب المتأجج غضباً وغيظاً أصبح حانياً مفعماً بالعواطف الدفيئة، ولسانها المعتقل في محبسه تحرر من قيده وشرع يداعبه بكلمات معسولة .. تعجب ، وبدت الدهشة واضحة على قسمات وجهه ، ساءلها في رفق :

ـ من أنت ؟

أجابت بدلال:

ـ حبيبتك؟

ـ لست أصدق عيني .. أأنا في حلم ؟!

ـ بل أنت في الحقيقة ؟

ـ هل أنا تغيرت أم أنت ؟

ـ كلانا تغير يا زوجي العزيز ..! المصائب والنكبات التي أحلت بك أعادتك إلى معدنك الأصيل ، وأنا أحسست أني أخطأت في حقك لأني أنا التي أضعتك من يدي ، وتركتك تقع فريسة لأرباب الفساد والهوى .

ـ كيف تحولت إلى هذه الدرجة ؟!

ـ لم أتحول ، بل عدت إلى أصلي ، ألم أكن رشيقة حينما جئت تخطبني؟!

ـ بلى ، ولكن..!

ـ من يحب يصنع المستحيل، وأنا صنعته من أجلك ، ومن أجل أن تبقى لي .

ـ وأنا يا سيدتي الجميلة عاجز عن شكرك .. لقد كنت لي نعم الزوجة المخلصة، وكنت لك بئس الزوج العاق .

ـ لا تفكر فيما مضى ودعنا نعش حاضرنا ومستقبلنا بشيء من الرضا ولون من ألوان السعادة .

أمسك يديها بكلتا يديه ثم رفعهما إلى فمه وجعل يلثمهما في حنان ويقول:

ـ بوركت يا زوجتي الجميلة ، وجزاك الله عني خير الجزاء.

******